القسم الثاني

هيكل وتجربة حياة.. قراءة خاصة جداً في حلقات التجربة!!

.. لا شك أن أحاديث هيكل في (قناة الجزيرة) هي بمثابة مرآة تعكس صورة متكاملة لبانوراما حياة.. وتجربة كاتبنا.. صحفياً.. وتاريخياً.. وقبل هذا وذاك إنسانياً أيضاً.. وقبل أن نتوقف عبر الصفحات القادمة لنقرأ خلاصة تجربة أستاذنا الكبير.. نشير أولاً لعدة نقاط هامة وهي:

- أن هذه الصفحات هي عبارة عن تفريغ لأحاديث هيكل التي تحدث بها عبر أثير "قناة الجزيرة" والتي حملت عنوان **(مع هيكل.. تجربة حياة)**.
- عند تناولنا لهذه الأحاديث لم نلتزم - متعمدين- الترتيب الزمني وفق إذاعتها.. ولكن جاء ترتيبنا وفقاً لوحدة الموضوعات..
- لم نحاول أن نتدخل كثيراً.. بل لم نتدخل إلا نادراً فيما قاله هيكل.. نقلناه عنه بالنص.. وباللغة العامية المطعمة أحياناً بالفصحى كما نطق بها تماماً.. واكتفينا بما ألحقناه بها من حواشي للتساؤل أحياناً.. والتفسير.. أو التحليل أحياناً أخرى.. أوالتعريف لما ذكره من شخصيات.. ومسميات لبعض الأحداث

وقبل أن نخوض في القراءة.. نحدد أولاً بعض الخطوط العامة التى سار عليها هيكل في رواية التجربة ربما بشكل منهجي مقصود.. أو بشكل سردي.. وعفوي غير مقصود.. وبين هذا أو ذاك نحاول أن نستنتج ونحدد تلك السمات من خلال فقرات بعينها قالها فيما رواه من أحاديث.. ولعل أبرز تلك السمات هي ما يلي:

الربط بين الماضي والحاضر

يحاول هيكل دائماً استنباط دلالات الأحداث.. وربطها بالحاضر.. أو المستقبل وفقاً لتنبوءاته الخاصة.

حروب العرب

الملمح الأول في أحاديث هيكل في قراءته التاريخية هو تركيزه على حروب العرب.. كما أضاف بعض العوامل التي تساعد على فهم التغيرات الجديدة التي قد تطرأ في كل عصر.. حيث يقول في أول حلقاته عن حرب السويس:

(دائماً كنت أقول باستمرار أن الجغرافيا والتاريخ هما العنصران الحاسمان في صنع التاريخ ولكن.. هما دول الثوابت في صنع التاريخ.. وفي صنع أحداثه الكبرى.. لكن في المتغيرات.. أول متغير هو الإدراك الحقيقي لطبائع العصور لأنه هنا في جغرافيا لا تتغير وموجودة.. وهناك التاريخ وهو تراكمى لا نستطيع أن نلعب فيه لأنه له آثاره.. وصحيح أن آثاره مستمرة.. لكن ما مضى منها لا يمكن التلاعب فيها.. وقد أدى دوره في الحسابات وأصبح عاملاً معترفاً به.

هيكل وحربي ٦٧ و٧٣

وفي سياق تحليله لأحداث حربى ٦٧ و٧٣ وفي حلقة حملت عنوان "**المدافع والبشر**" قال هيكل:

بعد أسابيع من صدمة ٥ يونيو سنة (٦٧) كان في مصر جبهتان.. جبهة كانت عبارة عن ميدان القتال والإعداد للحرب والوقوف وراء المجهود الحربى.. وجبهة أخرى هى الجبهة الداخلية.

انقسام الجبهتين من طبائع الأمور في التاريخ كله.. ميدان قتال معبأ لأقصى درجة.. وهناك جبهة داخلية تساند في ميدان القتال.. لكن التعبئة بها ليست بالأوامر العسكرية.. ولكن بالشعب.

وجبهة ميدان القتال كان فيها (جمال عبد الناصر) القائد العام للقوات المسلحة في هذا الوقت وكان الفريق فوزى وعبدالمنعم رياض.. وكان هناك مجلس وزراء.. مهتمين أكثر بالمجهود الحربى.. ومخابرات.. وجبهة تمثل الدولة بشكل عام وشكل إجمالى وبشكل أعمق.. ودولة موجودة تحاول أن تواجه المعركة الحربية على خط النار.. وجبهة أولى وهى جبهة ميدان القتال يقودها (جمال عبد الناصر) بنفسه .. وكان هناك انقسام بين المدرسة الفرنسية والمدرسة الإنجليزية.. المدرسة الإنجليزية.. التى تتمثل في تشرشل.. وهى القتال وأن نقف ونقاتل إلى آخر حد وفي كل شارع والجبال.. وفي كل منطقة.. والجبهة الأخرى متأثرة بالمدرسة الفرنسية.. التى تتصور الاستسلام لم يكن عندنا أحد على سبيل المثال يطالب بالاستسلام.. لكن الجبهة الداخلية كانت بتنادى بأشياء أخرى.. فأنا أتذكر أغنية لصلاح جاهين كان يقول فيها: الشعب بيزحف زى النور.. الشعب جبال.. الشعب بحور..

كان شيئاً جيداً أن يقال عن الشعب.. لكن الجبهة الداخلية العسكرية جبهة ميدان القتال.. كانت فيها الأمور واضحة.. وأنا رأيى أن (جمال عبد الناصر) كانت لديه مشكلة في ذلك الوقت من نوع غريب جداً.. وقليل أن نرى قيادات لديها خبرات عسكرية.. فهناك قادة قاتلوا بالفعل مثل (جمال عبد الناصر) في حرب فلسطين ولديهم تجربة الإحساس بالجماهير وسط عمل شعبى وتعلق جماهير برابط معين بين شعب وبين قيادة.. وهناك قادة لم يشتركوا في معركة واحدة.

عبد الناصر

العسكرى الموجود في (جمال عبد الناصر) كان يلح عليه وينادى بالقتال وروح المبادأة والسياسى الموجود فيه وهو الوجه الآخر من (جمال عبد الناصر) يعلم أن قرار المقاتل ينطوى على تضحيات كبيرة جداً وهو رجل خبرة.

فهو لديه زملاء له وجنود يقعون في ميدان القتال.. ويكون موجوداً بينهم ويتصور أيضاً واقع الأسر وهو أسرته نفسها كانت معرضة.. ويصل لها جواب من إدارة الشئون العاملة بالقوات المسلحة في فلسطين باستشهاد فلان.

فهو كان يشعر وهو يدفع للقتال بكل وسيلة بأن هناك وجهاً آخر إنسانياً فقرار القتال يجب أن يؤخذ بأعصاب باردة.. وأنا أتذكر تحديداً كيف كان يتعذب من أجل استمرار المبادأة.. والقتال باستمرار.. وعدم ترك الجبهة العسكرية تخمد أو تبرد.. كيف كان هذا مكلفاً من الناحية الإنسانية الأخرى.

لكن في مجمل الأحوال اعتقد أن الجبهة العسكرية كانت متحركة.. ورأينا فيها أشياء بديعة فبعد أقل من أسبوعين.. فكرة أن الإسرائيليين احتلوا سيناء في منطقة الشمال شرق بورفؤاد كانت فكرة خاطئة.. فهم لم يحتلوها لأن منطقة السبخة لم يستطيعوا دخولها حتى بعد ١٠ أيام.. وتقرر الدخول في معركة.. وكانت هى معركة رأس العش.. وأظن أن الذين حاربوا فيها أبلوا بلاءاً حسناً.. وأنه بالفعل ظلت هذه المنطقة موجودة.. لكن بعد تضحيات واضحة وكبيرة بالدم.

وعندما جاء الإسرائيليون على الضفة الأخرى فوجئوا بالوصول لضفة قناة السويس.. فالإغراء للوصول لقناة السويس كان كبيراً.. وعندما وجدوا الطريق مفتوحاً أمام الإسرائيلين سنة (٦٧) كانت هناك قوات كثيرة لم ينتبهوا لذلك.. وأظن أننا خسرنا في هذه الحرب فقط حوالي ٦ آلاف.. وكانوا من الممكن أن يصلوا لـ٦٠ ألفاً لو لم يغتر الإسرائيليون بفكرة الوصول لشاطئ قناة السويس.. وهكذا قلت الخسائر مما كان يمكن أن تكون عليه.. لكن عندما وصلت إسرائيل شاطئ قناة السويس وهم يريدون تقليل أعباء التعبئة العامة لأن ذلك بالنسبة لإسرائيل عبئاً لا يحتمل.. فبدأوا في إنشاء مواقع مراقبة.. أصبحت فيما بعد نوعاً من الدُشم وهى عبارة عن مواقع محصنة صغيرة على مواقع مختلفة من قناة السويس.. تحول لما نسميه الآن خط بارليف.. ولكن في بداية إنشائهم لهذه الدشم بدأت عملية إطلاق النار.. وبدا هناك نوع من حرب المدافع تدك هذه المواقع.. وكل ما تجد فيها شيئاً تخرجه.

وبعد ذلك حدث شيء مهم للغاية تمثل في إغراق المدمرة الاسرائيلية إيلات[1].. التى وضعت لتسد فوهة قناة السويس.. والتي لم تغطها الدشم المتمثلة في خط بارليف.. وبدأت في دوريات بمنطق أنها تكمل غلق قناة السويس وتكمل خط الدشم.

---

(١) في العشرين من يونيو عام ١٩٥٦ وصلت أول مدمرتين للبحرية الاسرائيلية تم شراؤهما من إنجلترا وأحضرهما طاقم إسرائيلى وكانت إحداهما "إيلات"والثانية "يافو" نسبة الى الميناءين إيلات ويافا.. اشتركت "إيلات" في حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وكذلك في حرب يونيو ١٩٦٧ وسرعان ما تقدمت إسرائيل تحت نشوة الانتصار في حرب ١٩٦٧ وغرور قوة الجيش الذي لا يقهر بدفع بعض قطعها لاختراق المياه الإقليمية المصرية في منطقة بورسعيد في محاولة لإظهار سيادتها البحرية..كما أظهرت من قبل سيادتها الجوية والبرية بضربها الطيران المصرى.. واحتلال سيناء.وتم إغراقها في ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ بواسطة فرقاطة مصرية صغيرة روسية الصنع.. وتعتبر هذه هي المرة الأولى في التاريخ الذي تدمر فيه مدمرة حربية كبيرة بلنش صواريخ.. كانت تلك كارثة ليس فقط على البحرية الإسرائيلية بل على الشعب الإسرائيلي بأكمله وعلى الجانب الآخر فان البحرية المصرية والشعب المصري بأكمله الذي ذاق مرارة الهزيمة في ٥ يونيو من نفس العام ارتفعت معنوياته كثيراً وردت إسرائيل على هذه الحادثة يوم ٢٤ أكتوبر

وفي يوم من الأيام قابل الفريق فوزى (جمال عبد الناصر) يقول له أن شباب البحرية مستفزين من هذه المدمرة.. وهم في اعتقادهم أنهم بإمكانهم إغراقها.. لكن حالياً هذا يحتاج لقرار سياسى.. لأنه بالكاد استطعنا تثبيت وقف إطلاق النار بشكل أو بآخر.. ومعارك تدمير الدُشم دائرة على الجبهة.. وعلى الرغم من خطورتها في لفت الأنظار إلا أن ذلك ليس ثابتاً على الخطوط.. وأن الإسرائيليين بدأوا في ضرب مصانع تكرير الوقود في السويس.. وكان هذا مكلفاً تكلفة عالية للغاية لو كنا تركناه.. لكن في هذا الوقت بدأ المهندسون في القيام بعمل بطولى.. وتم فك مصانع التكرير تحت النار.. ونُقلت تقريباً سليمة بخسائر قليلة جداً بجوار الإسكندرية بمنطقة الملاحات بعيداً عن ضرب المدافع والطائرات.

وعندما نقل الفريق فوزى رغبة شباب البحرية بوضع مخطط ضرب المدمرة إيلات.. أعطى (جمال عبد الناصر) الضوء الأخضر.. لتنفيذها ونفذت العملية بنجاح كبير.. وأمامى الآن تقارير المجلس الدولى الأمريكى الصادرة في ذلك الوقت.. وجاء فيها مقتل ٤٧ ضابط وجندي إسرائيلي ونحو ١٠٠ جريح.. أما تقرير المجلس الأمن القومى الأمريكى فيقول أن القوارب المصرية وجهت لإيلات ٤ صواريخ.. واستغرب واضع التقرير من دخول ٣ صواريخ في جسم المدمرة مباشرةً.. بينما صاروخ واحد فقط أخطأها ووقع بالقرب منها.. ويقول التقرير إنهم مندهشون من هذه الدقة والجرأة وهذه البسالة والنجاح الضخم جداً.

الجبهة الداخلية

كانت هناك جبهة حية.. في قناة السويس وجبهة ميدان القتال تؤدى دورها بالتصاعد.. وسط المخاطر ونزيف الدم.. لكن المهم ألا تقف الجبهة وتبرد وتخمد لأن هذا مهم جداً إذا أردت أن تحصل على نتائج.

بالنسبة للجبهة الداخلية عندما نقول الشعب "يزحف زى النور شعب جبال وشعب بحور" هذا كلام جميل لكنه كلام أغانى.. وفي واقع الأمر الشعب طبقات.. وفئات بأفكار مختلفة.. وحياة تتجدد كل يوم.. وبالتالى نحن لدينا مشكلة كبيرة في تعبئة الجبهة الداخلية.. فالأخيرة من الممكن أن تتماسك جداً في حالة الحرب المستمرة

بقصف معامل تكرير البترول في الزيتية بالسويس بنيران المدفعية كما حاولت ضرب السفن الحربية المصرية شمالي خليج السويس.

والمتصلة.. ولكن إذا كانت عندنا حرب فهى حرب بطيئة لا تحرك الأعصاب كما ينبغى.. ونحن كنا نحتاج لبعض الوقت بعد تعرض قواتنا المسلحة لكارثة ٥ يونيو وما بعده.. فمن الطبيعى أن تظهر في الجبهة الداخلية ما يسمى في اللغة الفرنسية بالملاذ أو الإحساس بالضيق والإحساس بعدم الراحة.. وكان ذلك طبيعياً بعد أحداث ٥ يونيو.. وأصبح في الجبهة الداخلية شعور بالضيق والاكتئاب والقلق.. وأصبح هناك وجع حقيقى كل الناس تشعر به.. وكان ينبغى التنبوء به.. وأنا اعتقد أن (جمال عبد الناصر) كان لديه الاستعداد لكى يفهم ما في داخل الجبهة الداخلية ويفهم أنه بعد التعبئة.. وبعد الشدة كلها.. وبعد كل ما جرى ستحدث لحظة عودة للنفس والتفكير والتأمل واللوم والحساب وطلب الحساب.. فهناك شعور طبيعى جداً بهذا الشكل.

"التيار الإسلامى"

وبدأ بظهر في الجبهة الداخلية تيار كبير هو التيار الإسلامى.. ودخل هذا التيار في أفكار ومحاولات وتجارب وأصبح وجوده مشروعاً.. فبعد سقوط الخلافة نشأت في مصر حركة الإخوان المسلمين.. وتصورت أن الجانب الإسلامى سيكون مستضعفاً في فترة ما بعد سقوط الخلافة.. وأنه يحتاج لتنظيم قوى.. وهو ما فعله حسن البنا.

وبدأ تحالف الإخوان المسلمين مع (الملك فاروق) كونه في تصورهم مؤسس فكرة الخلافة في ذلك الوقت.. ثم اختلفوا مع مجمل الحياة السياسية في مصر والوفد.. وهم قريبون من الملك.. والوفد بعيدون عن الملك.. وبدأ الصدام وصعد اسم التنظيم السرى في ذلك الوقت.. وبدأت حركة الاغتيالات.. وتعرض رئيسهم حسن البنا نفسه للقتل بأمر من الملك (فاروق)[1].. وذلك بعد أن فقد (فاروق) رئيس وزارئه وقائد جيشه وأهم مستشاريه المستشار الخازندار[2].

---

(١) نلاحظ هنا صحيح اتهام هيكل للملك فاروق بأنه وراء اغتيال حسن البنا.. وذلك دون أن يقدم لنا كاتبنا الكبير أي دليل مادي يثبت ادعاءه.

(٢) أحمد بك الخازندار رجل قانون وقاضي مصري اغتاله أفراد ينتمون لجماعة الإخوان المسلمين.. نظراً لكونه كان ينظر في قضية أدين فيها بعض شباب الإخوان لاعتدائهم علي جنود بريطانيين في الإسكندرية وحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في ٢٢ نوفمبر ١٩٤٧. بعد حكم الخازندار بالسجن على المتهمين الاخوان.. قال عبد الرحمن السندي رئيس النظام الخاص أن حسن البنا المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين قال في اجتماع بجماعته "ربنا يريحنا من الخازندار وأمثاله". وهو ما اعتبر، أعضاء في التنظيم بمثابة "ضوء أخضر" لاغتيال الخازندار" وفي صباح يوم ٢٢ مارس ١٩٤٨ خرج الخازندار من منزله بشارع رياض بحلوان ليستقل القطار المتجه إلى وسط مدينة القاهرة حيث مقر محكمته.. وكان في حوزته ملفات قضية كان ينظر فيها وتعرف بقضية "تفجيرات سينما مترو".. والتي اتهم

الإخوان المسلمون

في الإخوان المسلمين هناك تيار مقاتل بشكل أو بآخر وعندما جاءت الثورة تصور "الإخوان المسلمين" أن لهم في الثورة النصيب الأكبر فوقع الصدام.

واقعة الشيخ الشعراوي

وكان هناك من التيار الإسلامى في ذلك الوقت أعتقد أنهم خرجوا خارج الحدود قليلاً.. وأتذكر هنا موقف الشيخ متولى الشعروای - رحمه الله - حيث قال أنه حينما سمع بضرب الجيش المصرى في يونيو ١٩٦٧قام وتوضأ وصلى ركعتين حمدا لله على أن السلاح السوفييتى.. الذي كان في أيدى القوات المصرية لم ينتصر.. لأن هذا السلاح شيوعى..

وأقول هل سواء أكان السلاحُ شيوعياً أو غير شيوعي.. أليس هو سلاحٌ يقاتل في أيدٍ وطنية تقاتل من أجل الإسلام.. وأنا اعتقد أنه كان هناك تجاوز للخطوط الفاصلة بين ما هو عام أو ما هو خاص ومحدد.. وبين ما هو فئوى وحزبى.

فالإخوان كانوا موجودين بين الشعب ككتلة في ذلك الوقت ليس فقط حزينة مثل كل الناس.. ولكن تتصور في نفسها القدرة على أن تكون بديلاً.. كما أن الشيوعيين قد تصورا أنهم باستمرار في تناقض مع الوطنية بالمعنى التقليدى.. وكانت لهم رؤى خاصة.. والحركة الثورية العالمية.. وكل هذه الأشياء والتنقلات الطبقية المتجاوزة الحدود إلى آخره.. ويتصوروا أن التجربة الوطنية.. والقومية في مصر وقد وصلت إلى هذا المأزق.. وكان هناك خلط بين الحرب والثورة كعمل ثورى خارق للعمل الطبيعى وما بين الثورة بمعناها الاجتماعى.. وفي ذلك الوقت كان إخواننا الشيوعيين يعتقدون أن الثورة كانت لطبقة متوسطة صغيرة.

وفي ذلك الوقت ظهر التنظيم الدولى للإخوان المسلمين.. وكان فيه الدكتور سعيد رمضان[1] وجاء في تصوره حركة إسلامية عالمية مثل الحكومة الأممية شيوعية تحت

فيها عدد من المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين.. وما أن خرج من باب مسكنه حتى فوجئ بشخصين هما عضوي جماعة الإخوان حسن عبد الحافظ ومحمود زينهم يطلقان عليه وابلاً من الرصاص.. فأصيب الخازندار بتسع رصاصات ليسقط صريعاً في الحال.

(١) سعيد رمضان هو أحد قيادات الرعيل الأول في الإخوان المسلمين.. وزوج ابنة الإمام حسن البنا.. والسكرتير الشخصي له.. ومن قادة الإخوان في أوروبا وأحد أوائل مؤسسيى العمل الإسلامي في أوروبا وألمانيا علي وجه الخصوص.. قاد

لواء الاتحاد السوفييتى بصرف النظر عن أى شيء آخر.. وكان إخواننا الشيوعيين في موقف آخر مناقض للإخوان المسلمين.. لكن في نفس الاتجاه والمنطق وهو أنه جاء وقت الحزم ووقت الفرز ووقت القطع وإما أناس مقاومين أو مستسلمين.. أو أناس مع أو ضد أفكارهم وهذا لا يقبل أنصاف حلول.

أجنحة السلطة

وللأسف انتقل هذا من مشاعر عامة لبعض أجنحة السلطة مثل الجناح الاشتراكى كضرورة الحزم.. ودخلنا في استقطابات خطيرة بأن الجبهة في القتال على خط السويس مشتعلة.. وموجودة في القاهرة.. وفي البلاد أشياء أخرى مختلفة في النوع وهذا طبيعى.. كنت أدعو وقتها لتفهُمها ووضعها في إطارها الصحيح مع الإخوان المسلمين.. ومع التيار الإسلامى ومع التيار الشيوعى.. ونشأت أيضاً مراكز كثيرة جداً في القاهرة.. بمعنى أن هناك عدد كبير جداً من المسئولين السابقين.. وهذا طبيعى.. وعدد من أبناء العائلات القديمة التى أضيرت بالقوانين الاشتراكية.. وهذا طبيعى ومنطقى أيضاً.. وبدأ موجود في النوادى كنادى الجزيرة والصيد والسيارات كانت هناك أعداد تتكلم على أن الاعتماد على الحرب كلام لن يصح.. وأنا أتذكر بعد خروج الضباط من الخدمة ظلوا متمركزين في نادى سبورتنج بمصر الجديدة.. ويقولون ليس هناك أى فائدة من المعركة لأن السلاح الروسى لا يفعل شيئاً.. والأمريكان سيعطون الإسرائيليين ما هو أقوى منه.

❖❖❖

متطوعي الإخوان المسلمين في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بعدها رحل إلى جنيف عام ١٩٥٨ ودرس الحقوق فيها.. وأسس في ألمانيا ما أصبحت واحدة من المنظمات الإسلامية الثلاث هناك وهي الجمعية الإسلامية في ألمانيا التي ترأسها من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨وأحد مؤسسي رابطة العالم الإسلامي.. وهو والد الدعاة طارق وهاني رمضان والأخير حالياً رئيس المركز الإسلامي في جنيف.. ومن الشائع أن جمال عبد الناصر أصدر ضده حكماً غيابياً بالإعدام.. توفي عام ١٩٩٥ ودفن في مصر.

١

عقدة العُقد !!

في أعقاب الصدمة التى جاءت بعد هزيمة ٦٧ بدا أن عقدة العقد في الموقف كلها هى الوضع الدولى.

ففي الداخل يستطيع أى طرف موجود أن يحصل على ثقة الناس بشكل أو بآخر.. وأن يجمع الجبهة الداخلية.. ويضم صفوفها.. ويعبئها للمعركة.

وفي الخارج.. في الإقليم تحديداً كان من الممكن أن يستثير واقع الصدمة كل الهمم.. وأن يستدعى نسيان الخلافات السابقة جميعها.. ويضع أساس جبهة عربية تقوم عليها جبهة شرقية طبقاً لاستراتيجية متصورة لمعركة حتمية قادمة.

لكن الوضع الدولى كان لا يستطيع طرف محلى أن يتحكم فيه أو يديره وحده أو يتصور أن القرار في يده.

وهناك مسألة مهمة جداً.. هى وجود حالة من استقطاب قوتين في المنطقة.. القوة الأولى هى الاتحاد السوفيتى الذي ساندنا بشكل أو بآخر إلى مدى كبير..

وقوى كبرى غربية لها عندنا مصالح طائلة.. لكنها تساعد الطرف الآخر وهو إسرائيل.. بتصور أن إسرائيل هى الدولة القادرة على ضبط الإيقاع في المنطقة بالقوة.. وهذا هو المنطق الأمريكى على أى حال.

وهناك أسلحة تبيعها أمريكا للدول العربية لكن هذه الأسلحة لا تقاتل وهذا واضح ومعروف.. ولن تستطيع أمريكا لا اليوم ولا غدا ولا حتى بالأمس أن تعطى أى أسلحة لطرف عربى يقاتل بها إسرائيل.. فالسلاح الوحيد الذي كان موجوداً في ذلك الوقت هو السلاح السوفيتى والسلاح السوفيتى ليس متاحاً بأى طريقة كما يتصور البعض.. فالسلاح السوفيتى تحكمه سياسات الدولة السوفيتية.

إشارات متناقضة

وعلى الجانب السوفيتى كانت هناك مشكلة واضحة جداً أظن أنه من مخاطر ما جرى في ٦٧ أن نحسن فهم الأوضاع السوفيتية خصوصاً في ذلك الوقت.. لأن القوة السوفيتية كانت تدخل ـ وأريد أن أوضح أننا نتحدث عن دولة لم تعد موجودة على خريطة العالم.. ولم يعد هناك ما يسمى بالاتحاد السوفيتى ـ لكنها كانت قوى خطيرة وكبيرة وتبدو ظاهرياً متماسكة.. كان هناك أشياء أخرى لم نكن متنبهين لها بالقدر الكافي.. ونحن بالفعل نعرف أشياء ونسمع لغات تبدو متناقضة فالعسكريون مثلاً يتحدثون عن شيء.. والسياسيون عن شيء آخر.. ونجد مِن العسكريين مَن يشجع ما هو غير متصور أو أكثر مما هو متوقع.. ونجد من يحذر من الخطورة والسياسات.. والذي غاب عنا في ذلك الوقت أن هذا كله وراءه شيء يتمثل في بنيان الدولة السوفيتية في حد ذاتها.. أضيف إليه حجم الصراعات والاختبارات التى دخلت فيها بعد الحرب العالمية الثانية.. فيما يتعلق بالقوة السوفيتية فنحن لم ندرس بالقدر الكافي العلاقات بين الدولتين.

هناك خطأ أساسى حدث في بنيان الاتحاد السوفيتى.. فعندما واجهت الإمبراطورية الروسية القديمة ما بعد الحرب العالمية الأولى لينين[1] بأحلامه وتصوراته والذي تصور أنه من خلالها يستطيع حل مشكلة الأقليات وفقاً للعقيدة المشتركة.. ووحدة العمال..

---

(١) فلاديمير ألييتش أوليانوف المعروف ب (لينين) ثوري روسي.. كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية.. كما أسس المذهب اللينيني السياسي. لينين رفع شعار "الأرض والخبز والسلام". وُلد في مدينة سيمبيرسك الروسية (تعرف اليوم باسم أوليانوفسك)..

وحقوق العمال والفلاحين.. تصور أن العقيدة السوفيتية تستطيع أن تغطى كل تناقضات الإمبراطورية القومية والوطنية والعرقية.. ومشكلة الوطنيات وقتها جمهوريات كثيرة ضمت للاتحاد السوفيتى.. وفى العصر الإمبراطورى مثل أوكرانيا وروسيا وجورجيا وأرمينيا وكازخستان لم تجد لها حلاً.

وبالتالى نحن أمام كيان غطت عليه عقيدة مشتركة وقوة بدت لنا مؤثرة وهى بالفعل مؤثرة لكن القاعدة تحت هذه الهيبة.. وتحت هذا الغطاء الكبير الذي يسمى الاتحاد السوفيتى كان هناك كم كبير من التناقضات.

فى هذه الفترة اعتقد أن (جمال عبد الناصر) أنه كان فى حاجة شديدة جداً لعملية إعادة فهم.. وتقييم.. ودراسة الوضع الدولى كله.. لأنه وضع أمامه الاتحاد السوفيتى وعدة مواقف رآها علناً.. بعضها كان متناقضاً.. فهو على سبيل المثال استمع لكلام (أنور السادات)لما مر على موسكو قادماً من كوريا ١١ مايو .. وكان هناك تحذيراً واضحاً لـ(أنور السادات) بأن هناك عمليات على سوريا.. لكن فى يومين قال كوستيجين شيئاً آخر غير كلام سيمونوف لأنور (السادات).. واستغل الأمريكان التناقضات فى الموقف السوفيتى.

وكانت هذه رسالة لـ(كوستيجن) ينقلها عن وزير خارجية أمريكا (دين كوراس) والمسألة الأخرى أن هناك تيارات أمريكية يوم المعارك.. والانسحاب يوم ٦ و٧ ومرت وقتها ٦ طائرات أمريكية فوق سيناء ومسحت كل المسافة جنوبا من ناحية البحر الأحمر وعبرت وهبطت على حاملة طائرات فى البحر الأبيض ومرت فوق سيناء.

ولم يأت إيضاح من الأمريكان حول هذا الأمر وجاء خطاب من (كوستيجن) لـ(جمال عبد الناصر) يقول له إنه قد اتصل به أمريكان وأبلغوه بعدم القلق من هذه الطائرات التى عبرت الأجواء المصرية.. لأنها فى مهمة بريئة هى الكشف عن محالاوت التحرش الإسرائيلى فى البحر الأبيض وهم يريدون كشفها ويحددوا موقفهم منها.. ولذا مروا من سيناء تقليلاً للإجراءات.. فكيف يمكن أن يستخدم الأمريكان الاتحاد السوفيتى وسيلة لإبلاغ الرسائل؟!.. وهذه حالة كان يجب دراستها فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى.

وهنا أنت لديك طرف تعتمد عليه كجزء أكبر مما تريد ومما هو مطلوب فى المعركة.. ومن ناحية أخرى أنت حائر فى تصرفاته ولا تستطيع أن تحدد فيها شيئاً إلى

جانب ظهور شيء آخر كان أمامنا هو وجود عملية تشجيع أمريكى بشكل ما وتراجع سوفيتى بشكل ما وهو الأمر الذي أنهى الحرب الباردة.. وكلا الطرفان أرهقتهما الحرب الباردة لكن أحدهما كان لديه موارد كبيرة جداً.. وآخر لديه موارد محدودة.. ونكتشف بعد ذلك أنها لم تزد عن ثلث ما كانت عليه الموارد الأمريكية.. ويبدو بشكل ما عدم وجود تكافؤ في القوى لكن السلاح والقدرة النووية.. والردع المتبادل.. والترسانة النووية الموجودة عند كل طرف كانت تغطى على كثير من الحقائق.. وخلقت نوعاً في تصورى من المساواة المؤقتة التى لا يحسب عليها لمدة طويلة.

لكن فكرة الحرب النووية مستبعدة بالكامل.. والموازين هنا لا بد من مراعاتها لأنها سوف تحدث آثارها على وجه التحديد.. وفي ذلك الوقت أنا اتصور أن (جمال عبد الناصر) كان منهمكاً للغاية ويتعلم من جديد.. وكان يمتلك خاصية السمع كثيراً.. ويكتب مذكرات لما يسمعه.. ولم أرى في حياتى في التاريخ الكم الذي كان يكتبه وهى أوراق لا حدود لها.. والدهشة هنا أين الوقت الذي كان يكتب فيه كل هذا؟!

وكان لدى عبد الناصر استعداد كبير أن يسمع لأى أحد له فائدة.. وعندى قائمة بأسماء الذين حضرت مناقشاتهم.. وهي قائمة لا حصر لأولها.. ولا لآخرها.

❖❖❖